وكان الثوار يفهمون هذا النص بمعناه الحرفي ، في حين أن الكنيسة كانت تعني من ذلك مضمونه المثالي : سيقف الجميع سواسية أمام الرب . ولكن (ليبق كل انسان باسمه الذي سمي به) و (اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله) . وهنا يكمن الفرق بين الدين الرسمي و (العقيدة الشعبية) في القرون الوسطى .

ولم يكن الفن من ابداع علماء الدين ، بل كان ابداع اناس ليسوا ملحدين طبعا ، ولكن العقيدة الشعبية تجتذبهم فتجعلهم ينقلون مباشرة إلى مجال العلاقات الأرضية ماكانت الكنيسة تنقله إلى العالم الآخر . لقد كان الفنانون يتعاطفون مع السيد المسيح لأنه تألم كما يتألم الفقراء ويحبون العذراء لأنهم رأوا فيها المدافعة عن الناس . وكانوا يتصورون الحياة الأخرى شبيهة بالحياة الدنيوية لكنها مبنية على اساس العدالة .

صحيح ان الكنيسة كانت السيد الأول المطلق الصلاحية . وهذا الظرف لايمكن الا أن يعطى حقه . ولكننا ننقل أحيانا بدون حق مانعرفه عن ديانة العصور الوسطى إلى المؤلفات الفنية ونميل إلى أن نرى الرمزية الصوفية العميقة والتعقيد في الأماكن التي يعبر فيها الفنان ببساطة (وسذاجة) عن موضوعه .

وفي اعتقادنا أنه لالزوم لتضخيم العنصر الرمزي في فن القرون الوسطى . فهو بنيه للصور التي يبدعها الفنان وليس جوهرها . فما تحدث عنه الفن في العصور الوسطى هو ، من حيث الجوهر ، ذلك التناقض بين وعي الشعب المتنامي وبين اذلال النظام له واهانته لقيمه الانسانية باستمرار . وصورة الانسان المتألم المهان كانت الصورة الأساسية فيه . وهي تقف أمامنا مناقضة للصورة الفنية في المجتمع العبودي ، صورة البطل القوي الكامل ذي البنيـــة الجسدية التامة ، الذي لايفقد ، حتى في العذاب ، توازنه الهارموني وقوته الجميلة .

٦ــ ان بطل العصر القديم يؤكد نفسه في العالم كائنا قويا كاملا مظفرا ، أما بطل القرن الوسطى فكله تناقضات درامية . ومهما كانت الأشكال التي تجسدت بها درامـــية هـــذا الوجود غريبة بل منفرة أحيانا بالقياس إلى النظرة المعاصرة فانها كانت تناقضات الواقـــع الحقيقية . ان (العذاب) والطابـــع المأساوي يظهران على أشـــدهما في فن أوروبا الغربية الاقطاعي . ففيها جـــرى تطور العـــلاقات الاقطاعية بشكل عاصف وحركي ودرامي إلى حد كبير . ان نضال المدن من أجل الاستقلال والصدامات بين الاقطاعيات ونضال السلطة الملكية ضد ميول الاقطاعيين الانفصالية وتصارع السلالات على الملك وتنافس البابوات